

الدولة الهشة ذات الطبيعة الزبائية

عبد الفتاح القلقيلي*

مقدمة:

منذ انتهاء الحرب الباردة، تغيرت طبيعة الصراعات الدولية بشكل كبير. وفي حين كان هناك انخفاض متزايد في الحروب التي تحدث بين الدول، تنامت الصراعات التي تحدث داخل الدول كمًّا ونوعًا.

وفي بعض الحالات، تجاوزت الصراعات التي تحدث داخل الدول حدود الدولة وأصبحت تهدد الدول المجاورة لها فضلًا عن تهديد النظام العالمي. وقد ساعد ازدهار أساليب تكنولوجيا المعلومات وسهولة تنقل الأفكار والأشخاص على تمدد هذه الصراعات.

وعند الحديث عن هذه الصراعات التي تجري داخل الدول، يتبادر إلى الذهن فورًا كل من: أوكرانيا، وسوريا، والعراق، واليمن، وليبيا، وجنوب السودان، وغيرها من الدول. وأصبحت المشاكل العابرة للحدود مثل الأزمات الإنسانية، وملايين اللاجئين الذين خلفتهم تلك الصراعات، وصعود "الراдикаلية" والجماعات المتطرفة، وعدم الاستقرار الإقليمي تحديات خطيرة ليس فقط للدول المجاورة ولكن أيضًا بالنسبة للمجتمع الدولي.

وفي حالات متعددة يحدث ما هو أكثر من ذلك؛ حيث تتلاشى الحدود بين الصراعات التي تحدث بين الدول والصراعات التي تحدث داخل الدول بواسطة ما يسميه البعض "الحروب الهجينة" والتي يتقاطع فيها استخدام الأدوات التقليدية وغير التقليدية (أو الأدوات

* باحث فلسطيني

العسكرية وغير العسكرية).

وفي معظم الصراعات، يتم استخدام التكتيكات العسكرية التقليدية والأسلحة بالتزامن مع حرب العصابات، والدعاية، والهجمات الإلكترونية، وتوظيف القوات الخاصة مع الميليشيات المحلية، والحملات الإعلامية على مواقع التواصل الاجتماعي. وتتشابك هذه الوسائل مع بعضها البعض.

في اواخر القرن المنصرم (القرن العشرين) واوائل القرن الحالي شاع مصطلحان سياسيان هما "الدولة الفاشلة" و"النظام الزبائني".

الدولة الفاشلة

الدولة الفاشلة هي دولة ذات حكومة مركزية ضعيفة أو غير فعالة حتى أنها لا تملك إلا القليل من السيطرة على جزء كبير من أراضيها، وعلى الرقابة اللازمة لتفادي ما يجري فيها. فإن إعلان أن دولة ما قد "فشلت" هو موضوع جدل عموماً، وعندما يتم رسمياً، قد يحمل عواقب سياسية كبيرة.

تصبح الدولة فاشلة إذا ظهر عليها عددٌ من الأعراض أولها أن تفقد السلطة قدرتها على السيطرة الفعلية على أراضيها أو أن تفقد إحتكارها لحق استخدام العنف المشروع في الأراضي التي تحكمها. وثانيها هو فقدانها لشرعية اتخاذ القرارات العامة وتنفيذها. وثالثها عجزها عن توفير الحد المعقول من الخدمات العامة. ورابعها عجزها عن التفاعل مع الدول الأخرى كعضو فاعل في الأسرة الدولية.

تندرج الخدمات البلدية والصحية والتعليمية ضمن قائمة الخدمات الأساسية والتوزيعية. كما تندرج مستلزمات إقامة وإدامة أسس التوافق على شرعية الدولة كراعية لمصالح جميع سكان البلاد وليس مصالح فئة أو فئات معدودة منهم. (من ويكيبيديا، الموسوعة الحرة).

منذ عام ٢٠٠٥ دأبت مجلة (فورين بوليسي - Foreign Policy) الأمريكية بالتعاون مع "منظمة الصندوق من أجل السلام" على نشر مقياسها السنوي للدول الفاشلة، حيث تقوم بترتيب أبرز الدول الفاشلة في العالم.

ومؤشر الدول الهشة (سابقاً مؤشر الدول الفاشلة) هو التقرير السنوي الصادر عن صندوق السلام ومجلة فورين بوليسي في الولايات المتحدة منذ سنة ٢٠٠٥. وتضم القائمة الدول

ذات السيادة في الأمم المتحدة فقط. ويتم إستبعاد عدد من الدول حتى يتم التصديق على مركزها السياسي في الأمم المتحدة، مثل: تايوان، الأراضي الفلسطينية (مناطق السلطة الوطنية الفلسطينية)، قبرص الشمالية، جمهورية كوسوفو، الصحراء الغربية. فهذه "الكيانات" غير مدرجة بالقائمة.

صنف مؤشر الدول الفاشلة لعام ٢٠١٤م (١٨٧) دولة في العالم بإستخدام ١٢ معيارا رئيسيا سياسيا وإقتصاديا وإجتماعيا لقياس مدى فشلها، وجاء تقرير عام ٢٠١٤ الذي غير المسمى إلى (الدول الهشة) ليضع عددا كبيرا من الدول العربية والإسلامية ضمن قائمة الأكثر فشلا وهشاشة.

أما المؤشرات السياسية التي أشار إليها التقرير فتتمثل في فقدان شرعية الدولة بسبب فساد النخبة الحاكمة وغياب الشفافية والمحاسبة وضعف الثقة في المؤسسات الرسمية، إضافة إلى عدم التطبيق العادل لحكم القانون وانتشار انتهاكات حقوق الإنسان وفقدان الأمن وإحتمال قيام حرب أهلية. في حين تتمثل المؤشرات الإقتصادية في غياب التنمية الإقتصادية المستدامة لدى الجماعات المتباينة، وتراجع المؤشرات الكبرى كالدخل القومي والميزان التجاري وسعر صرف العملة الوطنية. أما المؤشرات الإجتماعية الدالة على فشل الدولة فتتمثل في تصاعد الضغوط الديموغرافية والحركة السلبية والعشوائية للأفراد واللاجئين.

في التقرير لعام ٢٠١٤ (المشار اليه اعلاه) احتلت دولة جنوب السودان الترتيب الأول بين دول العالم من حيث الفشل أو الهشاشة، تلتها مباشرة الصومال والسودان. وحل اليمن بالمرتبة الثامنة، والعراق وسوريا في المرتبتين الـ ١٣ و الـ ١٥ على التوالي. أما مصر (الدولة العربية الكبرى) فقد حلت في المرتبة الـ ٣١. أما الدول التي تصنف ضمن المربع الأسود للدول الأكثر فشلا فكانت ليبيا ولبنان من ضمن هذه الدول.

ووفقاً للتقرير المشار اليه، فإن أكثر الدول هشاشة في العالم تتركز في إفريقيا، والتي تضم ٧ دول من بين أكثر ١٠ دول هشاشة في العالم. وكما اشرنا سابقا، تصدر جنوب السودان دول المؤشر، تليها الصومال وجمهورية إفريقيا الوسطى. وفي المقابل، سيطرت دول الشمال الأوروبي على تصنيفات الدول "المستدامة للغاية" والدول "المستدامة" على مدار العقد الماضي. ولن يجادل احد في حقيقة كون فنلندا هي الدولة "الأكثر استقراراً" في العالم منذ عام ٢٠١١.

وبالمثل، تأتي معظم الدول الأوروبية من بين أقل الدول هشاشة في العالم؛ حيث تقع اثنتا

عشرة دولة من أصل خمس عشرة دولة مستدامة، ومستدامة للغاية في أوروبا، ويوجد من بين تلك الدول ١٠ دول أعضاء في الاتحاد الأوروبي. وعلى مدار العشر سنوات الماضية، شهدت اليونان تدهورًا كبيرًا، وهي اليوم تمثل الحلقة الأضعف في الاتحاد الأوروبي. وبالنظر إلى المفاوضات الجارية بين اليونان ومسؤولي الاتحاد الأوروبي، بالإضافة إلى انعكاساتها داخل الدولة، فإن موقف اليونان قد يستمر في التدهور في السنوات المقبلة.

لم تحظ مخاطر الدول الفاشلة على السلم العالمي بالاهتمام الكافي من قبل دول العالم إلا في بداية القرن الحالي، ففي حقبة الحرب الباردة كان ينظر إلى الدول الفاشلة على أنها جزء من الصراع بين القوتين العظميين آنذاك ومن النادر إعتبارها خطرا بحد ذاته. وفي التسعينات من القرن الماضي بدأت الدول الفاشلة تحظى بانتباه أكبر من قبل الدول الكبرى لأسباب إنسانية ناتجة من تفاقم إنتهاكات حقوق الإنسان في هذه الدول الفاشلة، وكانت منظمات حقوق الإنسان في الدول الكبرى هي المحرك الأساس في هذا الإتجاه.

ونستطيع القول انه منذ أحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١ بدأ الإهتمام العالمي بمخاطر الدول الفاشلة بعد أن "نجحت" هذه الدول في تصدير مخاطرها (الإرهاب الدولي، وتجارة المخدرات، والأسلحة غير الشرعية، والمهاجرين غير الشرعيين) إلى دول العالم الأخرى بما فيها الدول الغربية والولايات المتحدة. ويذكر أن "السيد كوفي عنان" الأمين العام السابق للأمم المتحدة قد حذر في وقت سابق الدول الكبرى من هذه المخاطر، حيث قال: "عدم الإهتمام بالدول الفاشلة يؤدي الى مشاكل كبيرة تترد في أوقات كثيرة علينا".

الكثير من الدراسات التي ناقشت موضوع الدول الفاشلة أو الهشة تؤكد ان المشاكل التي تعانيها هذه الدول هي اكثر خطورة مما يتصور الكثيرون، وان هناك حوالي ٢ مليار إنسان يعيشون في دول غير مستقرة وغير آمنة، وهم عرضة (بدرجات متفاوتة) للزج بهم في حروب أهلية وإقليمية. وهناك أيضا دول تمزقها الحروب الأهلية وهي عرضة للتفكك والإنهييار التام.

في رائعته "أنا كارينينا Anna Karenina"، قال الروائي الروسي ليو تولستوي إن "العائلات السعيدة كلها متشابهة، ولكن كل أسرة تعيسة هي فريدة في تعاستها"، وعلى هذا المنوال يمكننا القول بأن كل دولة هشة هي أيضا فريدة في هشاشتها. ولذلك، من غير المفيد في كثير من الأحيان قصر تعريف الهشاشة على قوائم أو مؤشرات قياسية ثابتة - فبعمل ذلك تخيب عنا تعقيدات وفروق دقيقة للهشاشة في بعض الحالات، كما تخيب عنا أوضاع هشة

أخرى بالكامل. لذلك على المعنيين بأوضاع الهشاشة والصراع والعنف، الاهتمام بما يتجاوز حدود القوائم.

ومن المهتمين بذلك "منظمة التعاون والتنمية في الميدان الاقتصادي". وتنشر هذه المنظمة تقريراً عن الدول الهشة سنوياً منذ عام ٢٠٠٥ لمراقبة المعونات المقدمة لقائمة من البلدان التي تعتبر أكثر هشاشة. وبدلاً من التركيز فقط على قائمة، فإن التقرير يعرض هذا العام (٢٠١٥) تفهماً شاملاً لأوضاع الهشاشة يتجاوز الدول الهشة والمتأثرة بالصراعات. ويعكس العنوان الجديد للتقرير، وهو "دول الهشاشة" والذي تم تعديله عن عنوان التقرير السابق "الدول الهشة"، هذا التغيير.

ومن خلال التركيز على القوائم، هناك أيضاً احتمال كبير أن نخفل الأوضاع التي قد لا تؤهل البلدان لهذه القوائم، لكن تكون لديها جيوب من الهشاشة في مناطقها الوطنية؛ ولقد شكل تحديد مستوى معين تعتبر البلد دونه هشة، تحدياً على الدوام. وباختصار، يبدو أنه من المفيد أكثر التفكير بشأن فهم طبيعة الهشاشة بدلاً من وضع تعريف لها.

ويشكل التقرير الجديد لمنظمة التعاون والتنمية في الميدان الاقتصادي في هذا الاتجاه، فهما شاملاً لأوضاع الهشاشة يتجاوز الدول الهشة والمتأثرة بالصراعات.

وتوقيت صدور هذا التقرير مقصود، إذ إنه سيعزز وضع اللمسات الأخيرة على أهداف التنمية المستدامة هذا العام. ويعرض التقرير إطاراً جديداً للرصد متعدد الأبعاد يستخدم ٥ أبعاد للهشاشة على أساس إطار ما بعد عام ٢٠١٥، وهي: العنف، والعدالة، والمؤسسات، والأسس الاقتصادية، والقدرة على الصمود في وجه الكوارث والأزمات. ويحلل محركات الهشاشة لكل بلد ويكشف عن أنماط مختلفة للضعف، مما يشير إلى أن الهشاشة لا تقتصر على عدد قليل من البلدان. ومن المرجح أن البلدان، التي تعاني من الضعف في جميع الأبعاد الخمسة للهشاشة، قد وردت في قوائم الدول الهشة الحالية الموجودة بالفعل، إلا أن العديد من الشريحة الدنيا من البلدان متوسطة الدخل معرضة بشكل خاص لمخاطر العنف والصدمات الاقتصادية والكوارث الطبيعية، بما في ذلك بلدان في منطقة أمريكا اللاتينية والبحر الكاريبي.

النظام الزبائني

اما النظام الزبائني (إنجليزية: Clientelism) فهو نظام سياسي وإجتماعي يصف علاقات

غير متكافئة وغير ندية بين مجموعات من الفاعلين السياسيين ينقسمون إلى رعاة وعملاء وأحزاب سياسية. إصطلاحاً، يمكن تعريفها بأنها نظام إجتماعي وسياسي قائم على المحسوبة. وهناك إختلاف بين علماء السياسة في تعريفها ولكن المصطلح غالباً ما يستخدم في إطار تحقيري وسليبي لارتباطه بالتخلف السياسي والفساد وعرقلة مؤسسات الدولة ومخالفته للقيم الديمقراطية (من ويكيبيديا، الموسوعة الحرة).

أما أنا فأرى أن "النظام الزبائني" هو النظام الذي يسلم القضايا الوطنية، ويتعامل مع المواطنين كـ"زبائن"، ولكن ليس انطلاقاً من مقولة السوق الشهيرة "الزبون على حق"، بل "إن الزبائن يدفعون اسعاراً مختلفة للسلعة الواحدة"، وذلك انطلاقاً من علاقة البائع بالزبون (اي هنالك مراعاة للزبائن المميزين).

وهنا يثور سؤال: هل هنالك مثال للنظام الزبائني في التراث الفلسطيني (غير السياسي طبعاً). والجواب: أجل!!

في المجتمع الفلسطيني قبل الاحتلال (وكان زراعياً طبعاً) كان نظام الملكيات الكبيرة القريب في اخلاقه من النظام الاقطاعي. في ذلك النظام كان المالك واولاده و"القطاريز". والقطاريز جمع "قطروز".

ولذلك نستطيع ان نسمي النظام الزبائني (فلسطينياً) بـ"النظام القطاريزي"، وفيه يكون الرجل الاول (الملك او الرئيس) هو المالك، واما الوزراء ورؤساء الاجهزة الهامة هم ابناؤه، واما بقية الموظفين فهم "قطاريز".

تمتاز الشخصية القطروزية (كما يفيد بعض المنظرين الاردنيين) بمميزات تختلف من قطروز لأخر، الا ان السواد الاعظم من القطاريز تتشابه في كثير من الصفات، منها الطاعة العمياء، سرعة الحركة في انجاز الاوامر، الاصغاء الجيد، قلة الحديث وبالتالي عدم المناقشة فيما يُطلب منه، يجيد كلمة نعم ولا يعرف باللغة كلمة "لا" (لسيده طبعاً). يتقزم اذا ما تعلمق السيد، يصبح هرة اذا ما استأسد السيد. وتجد هذه الشخصية منتشرة تقريباً في كل الاوساط، في الدوائر الحكومية والخاصة، وعند عليّة القوم المنتهية مدتهم او صلاحيتهم. والفكر القطروزى موجود في كل تجمع بشري سواء ذكري او نسوي. ويمكن القول ان هناك قطروز لكل صاحب معالي او عطوفة او ما دونهم، وهنا في القطاع الخاص قطاريز كل بطريقته. ولعل من المناسب الحديث عن دور القطروز في حياة السيد، حيث تجده يعمل بلا كلل كدوام رسمي او في بيت السيد،

ففي المكاتب يقوم بما هو مطلوب منه كأن يكون سمع وبصر السيد في حال تواجده في الدوام، الا ان غالبية عمل القطرور هي خارج المكاتب، وفي منزل السيد تحديداً، حيث يقوم بتوصيل الاولاد الى الجامعات والمدارس والمدام الى الكوافير، بعدها يعود الى السوق لشراء ما تم الاتفاق عليه مع حرم السيد وبعد التسوق في محلات الخضار والفواكه وغيرها.

الموظف قطرور عند رئيس القسم، ورئيس القسم قطرور عند مديره والمدير عند الوزير والوزير عند الرئيس... وهكذا. ويجب ان نلاحظ ان اضعف حلقة من القطاريز هم الذين ابداً لن يصبحوا يوماً سادة بل هم باقون (قطاريز) حتى النهاية.

ويقول خيرى منصور في جريدة الدستور الاردنية (٢٦-١٢-٢٠١٠) في مقال بعنوان "قطاريز ومطاريز" "القطاريز كلمة لها صدى في ذاكرة القرويين من ابناء جيلنا والاجيال التي سبقتنا، وهو يشبه الى حد بعيد الاقنان كما وصفهم السياب في ديوانه منزل الاقنان او الموجيك الروسي قبل ثورة اكتوبر، فالقطرور يتقاضى اجرا محددا عن عمله طيلة عام كامل وهو سائس خيل وحصاد وعامل، اما المطاريز فهم كما روى لي صديق من الخليج العربي اشبه بتلك الفئة من صقور الصيد الرخيصة التي تطلق وراء الفريسة كي تدوخها ثم يأتي دور الصقر الثمين وذو الخاتم الذهبي.."

ويواصل خيرى منصور القول: "في خمسينات القرن الماضي كنت من اوائل المنسلخين عن نمط التفكير الاجتماعي الذي يشمل الطبقة التي انتسب اليها، وهي طبقة ملاكي الارض وكنا ننحاز (رغم اننا لم نكن نتجاوز العاشرة) للقطاريز ونتمنى ان يأتي يوم ينتفضون فيه على اهلنا ثم جاءت الرياح الايديولوجية محملة بافكار من هذا الطراز ورحبنا بها، ولم يكن يخطر ببالنا ان القطرور او المطريرز سوف يقلب ظهر المجن لذاكرته ولمن شجعوه على العصيان ليصبح اسوأ باضعاف من الذين كانوا يسيطرون على حياته ويمتلكونه كما يملكون الخيل والماعز.

واول ما فكر به القطرور عندما امسك بالمفاتيح هو تقليد سادته القدامى ومحاكاة سلوكهم، وبدلاً من تحقيق وعوده بتحرير الارض والناس رهن نفسه لمن يهد له الطريق للبقاء في السلطة، سواء كانت صغيرة في نطاق مجلس قروي او كبيرة في نطاق رئاسة جمهورية او شبه دولة. لقد اصبح القطرور ثريا بيدد المال بسفاهة ولا مانع لديه ان يقتل كل خصومه اذا تطلب الامر، ولكي يبرهن القطرور لنفسه وللناس على ان الزمان تغير لصالحه.. دفع

اموالا طائلة ثمنا لبيت قديم يشبه الاطلال، لمجرد ان مالك هذا البيت كان ذا جاه ونفوذ في زمن ما.

وما فعله القطروز كرره المطريز لكن بشكل مغاير، فهو فعلا يؤدي وظيفة مدفوعة الاجر من اجل تدويخ الفريسة ولكن ليس على غرار الصقور الرخيصة، بل من خلال الاستعداد والوشاية وبث الشائعات وبمرور الوقت نسي المطريز وظيفته.. وبدأ يحلم بالتحليق عاليا وبعيدا ليأخذ دور الصقر. وهذا شبيه بالكومبارس و"الدوبليرات" او البدائل في الافلام. فهناك من يتقاضى اجرا زهيدا مقابل ان يسقط عن سلم او درج بدلا من البطل لان مؤخرة رأسه واذنيه تشبه مؤخرة رأس واذني البطل.. وهذا هو كل رأس ماله...".

ان ما يجب قوله بلا اية مواربة هو ان بيوت او حتى قصور من انقلب عليهم القطاريز والمطاريز اكثر تواضعا بكثير من بيوت الحواشي والتابعين لهؤلاء الذين جعلوا كثيرا من الناس في ايامنا يكفرون بكل الشعارات التي هتفوا لها.

وباختصار نستطيع القول: "إن أنظمة الدول الهشة هي (في الغالب) أنظمة زبائنية، وإن موظفي الدرجة الثانية وما دون ذلك في هذه الانظمة عليهم ان يتخلقوا باخلاق القطاريز إذا ارادوا ان يحوزوا على رضى سادتهم".

ورغم رصانة المقال وما يثيره من مأس في نفوس قراء مجلتنا الا انني سأختمه بطرفة واقعية.

اطلّع ابني على مقالي هذا (قبل نشره) فقال لي: كأنك تصف نظامنا!!!

فقلت له: يحكى ان "جحا" كان يسير في جنازة، وكانت ام المييت تصيح باعلى صوتها: يا ويلاه!! يأخذونك يا ولدي لبيت لا طعام ولا شراب فيه، وخال من الاثاث والتدفئة!!!

فالتفت ابن جحا لابييه، وقال: كأنهم يأخذونه الى بيتنا يا ابي؟!!

فقال جحا لابنه: لا يا بني. البيت الذي يذهب اليه هذا المييت فيه عقاب وثواب، رغم انه يشبه بيتنا من حيث خلوه من الاثاث!!!

ضحك ابني واكتفى باجابتي

المصادر:

- ١- المؤشر السنوي للدول الهشة في العالم لعام ٢٠١٤ (كان اسمه حتى العام الماضي: مؤشر الدول الفاشلة). هو التقرير السنوي الصادر عن صندوق السلام (Fund for Peace) الذي يُعنى بمنع النزاعات. ومجلة فورين بوليسي في الولايات المتحدة منذ سنة ٢٠٠٥. وتضم القائمة الدول ذات السيادة في الأمم المتحدة فقط. ويتم إستبعاد عدد من الدول حتى يتم التصديق على مركزها السياسي في الأمم المتحدة. صنف مؤشر الدول الفاشلة ١٨٧ دولة في العالم باستخدام ١٢ معيارا رئيسيا اجتماعيا وسياسيا واقتصاديا لقياس مدى فشلها.
- ٢- تقرير التنمية البشرية لعام ٢٠١٤ الصادر عن صندوق الأمم المتحدة للسكان.
- ٣- ويكيبيديا (الموسوعة الحرة).
- ٤- تقرير المعرفة العربي للعام ٢٠١٤ (الصادر في الإمارات العربية المتحدة).